تحولات زمن الفعل في قصص سورة الكهف ـ دراسة أسلوبية

أ.د.كمال عبد الرزاق صالح
قسم اللغة العربية /كلية التربية الأساسية /الجامعة المستنصرية
dr.kamall.iq@uomustansiriyah.edu.iq

مستخلص البحث:
تتناول هذه الدراسة حركة الزمن من خلال الفعل في النص القرآني ولاسيما في القصص الوارد ذكرها في سورة الكهف ، وهي أربع قصص ،أولاها : قصة أصحاب الكهف ، ثم قصة الرجلين ، ثم قصة سيدنا موسى والعبد الصالح ،ثم قصة ذي القرنين. ويتحرك الزمن من خلال الفعل وتغيراته ودلالاته المتنوعة بحسب المضي والحال والاستقبال ، وذلك بالنظر إلى تعريف الفعل كونه حدثاً مقترناً بزمن ،وسنحاول استقراء هذه الحركة الفعّالة للزمن في القصص الأربعة المذكورة ، بوساطة التحليل الأسلوبي وبيان طبيعة التحولات الزمنية ، ومقارنتها في كل قصة مع ما في أخواتها من القصص الأخرى ، مع التأكيد على أنَّ هذه التحولات (الزمن فعلية) هي الأكثر انسجاماً ومناسبةً للقص القرآني بحسب تموضعها في كل قصة وإسهامها في بناء المعنى المنشود والمبتغى المطلوب في كل قصة من تلك القصص .

الكلمات المفاتيح : الزمن ، الفعل ، سورة الكهف ، الأسلوبية .

المقدمة :

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ، وبعد :
تكتسب الدراسات الأسلوبية أهمية متميزة في مجالات البحث النقدي التحليلي ولا سيما الإبحار في آيات الكتاب العزيز متدبِّرين وباحثين في لغته العليا وهي اللغة المكتنزة للكثير من مواطن الجمال والجديرة بالتأمل . ووقع اختيارنا على البحث في أسلوبية تحولات زمن الفعل في قصص سورة الكهف وهي من السور المكية ، ورقمها 18 في تسلسل سور القرآن الكريم ، وعدد آياتها 110 آيات ، وهي من السور التي تأخر نزولها في مكة المكرمة ، وترتيب نزولها 69 ضمن سائر السور القرآنية المباركة .وقد تضمَّنت هذه السورة أربع قصص هي :

1 – قصة أصحاب الكهف : وشغلت الآيات من الآية 9 إلى آية 26 .
2 – قصة الرجلَين : وقد شغلت الآيات من آية 32 إلى آية 44 .
3 – قصة سيدنا موسى والعبد الصالح : وقد شغلت الآيات من آية 60 إلى آية 82.
4 – قصة ذي القرنين : وقد شغلت الآيات من آية 83 إلى آية 98 .

وقبل الشروع في تحليل تحولات زمن الفعل في هذه القصص الأربعة لا بد من الإشارة إلى بعض الأمور :

1 – تبدأ سورة الكهف بـ (الحمد لله) ، وهي من ضمن خمس سور بدأت بالحمد في كتاب الله وجميعها مكية وهي :

+ سورة الفاتحة التي تبدأ بـ قوله تعالى :(الحمد لله رب العالمين) .
+ سورة الأنعام التي بدأت بقوله تعالى : (الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنورثمَّ الذين كفروا بربهم يعدلون) .
+ سورة الكهف التي بدأت بقوله تعالى : (الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا).
+ سورة سبأ التي بدأت بقوله تعالى : (الحمد لله الذي له ما في السماوات ومافي الأرض وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير).
+ سورة فاطر التي بدأت بقوله تعالى : (الحمد لله فاطر السماوات والأرض جاعل الملائكة رسلاً أُولى أجنحة مثنى وثُلاثَ ورُباع يزيد في الخلق ما يشاء إنَّ الله على كلِّ شيءٍ قدير) .
2 – بدأت سورة الكهف بجملة اسمية (الحمد لله) وختمت بجملة فعلية فعلها مضارع (ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) ، ومن المعلوم أنَّ الجملة الاسمية تدل على الثبوت والدوام والجملة الفعلية تدل على الحركة والتغير والاستمراروالاسيما في الفعل المضارع الدال على الحال والاستقبال .
3 – إنَّ حركة الزمن تكتسب فاعليَّتها من خلال الأفعال التي تتفاوت دلالاتها الزمنية بين المضي والحال والاستقبال،فليس الفعل الماضي متفرّداً بالدلالة على المضي بل إنَّ الفعل المضارع قد يدل على الزمن الماضي إذا سبقته (لم) التي تنفي وتجزم الفعل المضارع وتقلب زمنه من الدلالة على الحال والاستقبال إلى الدلالة على الزمن الماضي، ونقيض ذلك فقد يدل الفعل الماضي على الاستقبال إذا سبقته (إذا) وهي ظرف لما يستقبل من الزمان ، فضلاً عن كونها تضيف دلالة التكرار على الفعل ،وهذا جانب من جوانب اتساع اللغة وتنوع أساليبها فضلاً عن سعة حركة الزمن ودلالات الألفاظ عليها وهي تتحرك بانسجام تام ومتكامل لتأليف المعنى .
4 – توافرت في هذه القصص الأربعة عناصر القص المتمثلة بالحدث والشخصيات والزمان والمكان والحوار . *** *** ***

أولاً _ قصة أصحاب الكهف :

تبدأ الآيات الكريمة السادرة لقصة أصحاب الكهف بتوجيه خطاب إلى سيدنا محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) بقوله تعالى (أم حسبت أنَّ أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا) ، بالحرف (أَمْ)الدال على الإضراب ، إشارةً إلى أنَّ آية أصحاب الكهف – على عجائبيَّتها – ليست بعظمة عجائب آيات الله الأخرى ، فهم فتية مؤمنون بالله موحِّدون فرّوا بدينهم إلى الله فلجأوا إلى الكهف فرقدوا أمداً طويلاً ثمَّ أيقظهم الله وبعثهم إلى قومهم ليكونوا آية من آيات الله ودليلاً على قدرته .
ومن الملاحظ هنا أنَّ حركة زمن الفعل مشت بشكل متناسق ومتقارب بصورة واضحة أشد الوضوح ولاسيما في الفعلين الماضي والمضارع ، وإذْ نتدبَّر الآيات التي وردفيها ذكر قصة أصحاب الكهف يشخص أمام أعيننا بوضوح تام الفعل (لبث) متصلاً بضمائرالرفع :
+ لَبِثوا – متَّصلاً بواو الجماعة وتكرَّر ثلاث مرات :
- في قوله تعالى : (ثُمَّ بعثناهم لنعلمَ أيُّ الحزبين أحصى لِما لَبِثوا أمدا)(الكهف :آية 12) .

• وقوله تعالى : (ولبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا* قل الله أعلم بما لبثوا ...) (الكهف :الآيتان :25-26 .).

+ لَبِثْتُم - متَّصلاً بضمير الرفع (التاء) وميم الجمع وقد تكرَّر مرَّتين في قوله تعالى :

• (... قال قائل منهم كم لبثتم ... قالوا ربكم أعلم بما لبثتم ...) (الكهف: آية 19) .

+ لَبِثنا – متَّصلاً بضمير جماعة المتكلمين (نا) ، وقد ورد مرَّة واحدة في قوله تعالى : (...قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم ...) (الكهف : آية 19) .

ومن الملاحظ أنَّ الفعل (لبث) هيمن بتكراره هذا على النص وشكَّل ملمحاً أسلوبيّاً وتسيَّد على سائر الأفعال الواردة في سياق القص والتزم هذا الفعل الصحيح الثلاثي المتصرّف اللازم ، صيغة الزمن الماضي (لبث) ولم يرد هنا بأزمنة أخرى للحال والاستقبال . ويرى أستاذنا الدكتور إبراهيم السامرائي :(أنَّ من البديهي أن يعرب الفعل عن الزمان وأن يدل على أقسام هذا الزمان ودقائقه وذلك بصيغ وأبنية وتراكيب معروفة ...) (1)، فإنَّ أكثر ما يلائم زمن القص هو الزمن الماضي بوصفه يعطي الإطار الزماني المناسب للأحداث.وفي موضع آخر يضيف قائلاً : إنَّ (فعل) ونحوه يشير إلى حدث كان قد تمَّ في زمن ماض لا تستطيع ضبطه وتعيينه ... ويرد كثيراً في سرد أحداث ماضية في أسلوب القصص(2)

وبالعودة إلى المعجمات اللغوية العربية نجد ابن منظور في لسان العرب يقول:

لَبِثَ : اللبثُ واللباثُ : المُكثُ. قال تعالى : (لابثين فيها أحقابا)(النبأ : آية 23) ... قال الفرّاء : اللّبِثُ البطيءُ ، ولابِثٌ ولَبِثٌ مثل طامع وطمِعٌ ، بمعنى واحد.. قال أبو منصور: يُقال لَبِثَ لُبثاً ولُباثاً ولَبْثاً كل ذلك جائز ... قال الجوهري : مصدر لَبِثَ لَبْثاً على غير قياس ... قال ابن سيده : وتَلَبَّثَ : أقام (3) ويتبيّن لنا أنَّ دلالة هذا الفعل على البقاء والمكوث الطويل ، تجعله أكثر ملاءمة لأحداث قصة أصحاب الكهف في إقامتهم الطويلة في كهفهم ، وفي هذا نلحظ فرقاً جليّاً بين الفعل (لبث) والفعل (مكث) الذي يدل على الإقامة مع الانتظار والتلبُّث في المكان (4).

ونلحظ في النص القرآني لقصة أصحاب الكهف، أنَّ ثمَّةَ ألفاظاً خاصة تناسب الجو الخاص بالقصة ، منها مثلاً : (أوى – فأووا – أيقاظ – رقود – بعثناهم – أعثرنا عليهم...) ، وقد سبق أن وقفنا عند الفعل (لبث) ودلالة تكراره ودلالته على الإقامة الطويلة في المكان الذي أوى إليه الفتية لاجئين فراراً بدينهم ، وقد ورد فعل الإيواء مرَّتين بصيغتين مختلفتين : (الماضي – أوى)، و(الأمر - فأووا) .واستلزم الكهف والإيواء واللبث الطويل ألفاظ (رقود –بعثناهم) ، واقترن لفظ (رقود) باليقظة :

• (وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود)

والرقود سكون ، والإيقاظ تحريك ، ومن هنا جاء تفسير الإمام القرطبي للبعث بقوله : (البعث : التحريك عن سكون ... بعثناهم أيقظناهم من نومهم على ما كانوا عليه من هيئتهم في ثيابهم وأحوالهم ..) (5) .

وقد اكتظَّت آيات هذه القصة بألفاظ دالَّة على الحركة والسكون ، فمثال ألفاظ السكون :

- الكهف وقد تكرر 4 مرّات.

- لبث ، لبثتم ، لبثنا .
- ضربنا على آذانهم .
- ربطنا على قلوبهم .
- أوى – فأووا .
- رقود .

ومن الألفاظ الدالَّة على الحركة:

- بعثناهم – مكررة .
- قاموا .
- أيقاظاً
- لولَّيت .
- فليأتكم .
- يرجموكم .
- يعيدوكم .
- أعثرنا عليهم .

ومن الواضح هنا أنَّ الدلالة على السكون فاقت الدلالة على الحركة إذا أخذنا التكرارات بعين الاعتبار ، وهذا ما يتناسب مع كون مدة لبثهم في الكهف مدة طويلة في سبات وسكون طويل الأمد .
ومن الواضح ممَا سبق أنَّ ثمَّة أسماء وأفعالاً تدل على الحركة والسكون لكننا اجتزأنا بالأفعال بصرف النظر عن الأسماء لأنَّ الأفعال تكتنز بالدلالة الزمنية من دون الأسماء .
ومن جماليات التعبير القرآني أن تتنوع صور الفعل وسوابقه ولواحقه التي تؤثر في الدلالة الزمنية ، من ذلك مثلاً سبقه ب(إذْ) وهو ظرف للمضي في أصل وضعه (6) ، نحو قوله تعالى :

- (إذ أوى الفتية إلى الكهف)(الكهف:10).
- (وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا)(الكهف : 14) .
- (وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلّا الله)(الكهف : 16) .

وهذا لا يمنع من مجيء هذا الظرف مع المضارع ، نحو قوله تعالى :

- (إذ يتنازعون بينهم أمرهم)(الكهف : 21).

وقد يأتي الماضي مسبوقاً بـ (إذا) ، وهي (في الغالب تكون ظرفاً للمستقبل مضمنة معنى الشرط ، وتختص بالدخول على الجملة الفعلية)(7) ، وبذا يتحول زمن الفعل من الماضي إلى المستقبل ، نحو قوله تعالى :

- (وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال ...)(الكهف :17) .

ومن خصائص (إذا) وهي تدخل على الفعل الماضي أنَّها تفيد نكرار حدوث الفعل ، فشروق الشمس وغروبها حدثان يتكرران على الدوام ، وإذ يتحقق الطباق بين الفعلين (طلعت و غربت) ، فالفعلان

(تَزاوَرُ وتقرضهم) يؤديان معنى الانحراف والترك والميل جانباً عن الكهف لكي لاتصيب الشمس أجسادهم فتؤذيهم . ويرى الزمخشري : (تَزاوَرُ أي تمايل ، أصله تتزاور فخفف بإدغام التاء في الزاي أو حذفها ... تقرضهم تقطعهم لا تقربهم من معنى القطيعة والصرم ... والمعنى أنهم في ظل نهارهم كله لا تصيبهم الشمس في طلوعها ولا غروبها مع أنهم في مكان واسع منفتح معرض لإصابة الشمس لولا أنَّ الله يحجبها عنهم...)(8) .

وإذا دخلت (لو) على الماضي تحوَّل زمنه من المضي إلى المستقبل ، نحو قوله تعالى :

- (لو اطَّلعتَ عليهم لَوَلَّيتَ منهم فراراً ولَملئتَ منهم رعبا)(الكهف :18).

أمّا الفعل المضارع الذي يدل على
زمن الحال و الاستقبال ، فقد يأتي صحيحاً خالصاً من السوابق كالفعل (نقُصُّ) في قوله تعالى :

- (نحن نقصُّ عليك نبأهم بالحق ...)(الكهف : 13) .

فهذا الفعل يدل هنا على زمن الحال والسياق هنا في خطاب الرسول الكريم صلى الله عليه وآله ، وهو بدلالته على الحال يحكي عن حدث أقدم من زمن القص لغرض التذكير والاعتبار، وألقي هذا الخبر على سيدنا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم وهو خالي الذهن ، لا علم له بذلك الحدث البعيد في الزمن .

وقد تكرر فعل القول (قالوا) الماضي ورافقه فعل القول المضارع (سيقولون) ، كما في قوله تعالى :

- (سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجماً بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم ...)(الكهف :22).

للدلالة على استمرار الحديث عن الفتية وتكراره في زمن يتلو زمن الحدث ، ويظهر هذا الفعل مسبوقاً بحرف الاستقبال (السين) الذي يحيل زمن الفعل المضارع إلى المستقبل، و(السين وسوف) حرفان يفيدان الاستقبال ويختصان بالدخول على الفعل المضارع ، وتدل السين على المستقبل القريب ، بينما تدل (سوف) على مستقبل أبعد (9) ، وتحرَّك زمن الفعل المضارع وتحدَّد بالاستقبال بدخول (لن) الناصبة الدالة على نفي المستقبل، كما في قوله تعالى :

- (لن ندعوَ من دونه إلهاً ...)(الكهف :14) .
- (ولن تفلحوا إذاً أبدا)(الكهف : 20) .

فالنصب يصرف زمن الفعل المضارع إلى الاستقبال (10) كما مثَّلنا لذلك ونحو قوله تعالى أيضاً:

- (ولا تقولَنَّ لشيءٍ إنّي فاعلٌ ذلك غداً* إلّا أن يشاءَ اللهُ واذكر ربَّك إذا نسيتَ وقل عسى أنْ يهديَني ربّي لأقربَ من هذا رشدا)(الكهف : 23،24)

وإذا دخلت نون التوكيد على الفعل المضارع تخصص زمنه بالمستقبل (11)، نحو قوله تعالى :

- (قال الذين غلبوا على أمرهم لَنَتَّخِذَنَّ عليهم مسجدا)(الكهف : 21).

وإذا دخلت أداة شرط على المضارع دلَّ على الاستقبال (12)، نحو قوله تعالى :

- (مَنْ يَهْدِ اللهُ فهو المهتَدِ ومَنْ يُضلِلْ فلن تجدَ له وليّاً مرشدا)(الكهف : 17) .

- (إنَّهم إنْ يظهروا عليكم يرجموكم)(الكهف : 20).

وإذا اقتضى المضارع طلباً كالأمر والنهي (13) ، نحو قوله تعالى :

- (فَلْيَنظرْ أيُّها أزكى طعاماً فَلْيَأْتِكم برزقٍ منه ولْيَتَلَطَّفْ ولا يُشعرنَّ بكم أحدا)(الكهف :19) .

قالأفعال : (فَلْيَنْظرْ – فَلْيَأْتِكم – وَلْيَتَلَطَّفْ) أفعال مضارعة دخلت عليها لام الأمر وخصَّصت زمنها بالمستقبل ، أمّا الفعل (يشعر) فقد دخلت عليه (لا الناهية ونون التوكيد الثقيلة) فانصرف زمنه إلى الاستقبال ، ومثله الفعل (لاتقولَنَّ) ، وفي سياق الآيات ثمَّة فعلان مسبوقان بـ (لا الناهية) يدلّان على الاستقبال هما (فلا تُمارِ – ولا تستفتِ) وماضيهما

الرباعي (مارى – يُماري)

و السداسي (استفتى – يستفتي) .

وإذا دخلت (لولا) على المضارع أفاد معنى التحضيض وتخصَّص زمنه بالاستقبال ، نحو قوله تعالى :

- (لولا يأتون عليهم بسلطان بَيِّنٍ)(الكهف : 15) .

ويتحوَّل زمن الفعل المضارع ويختص بالاستقبال إذا جاء في سياق التمني ، نحو قوله تعالى :

- (وقُلْ عسى أن يهديَني ربّي لأقربَ من هذا رَشَدا)(الكهف : 24) .

ولا تفوتنا هنا الإشارة إلى دلالة فعل الأمر على زمن المستقبل وهي دلالته الأصلية كما في الأفعال (آتِنا – هَيِّئْ – فأْووا –فابعثوا – ابنوا – واذكر – وقل) في آيات متفرقة .

وفي جواب الطلب يتخصص زمن المضارع بالاستقبال ، نحو قوله تعالى :

- (فَأْووا إلى الكهفِ يَنْشُرْلكم ربُّكم من رحمته ...)(الهف : 16) .

فالفعل (ينشرْ) جاء جواباً للطلب في فعل الأمر (فأووا) لذا جاء مجزوماً .

*** ***

ثانياً : قصة الرجلين..

ذكر الله تعالى هذه القصة في سورة

الكهف في الآيات : (32– 44) ،والرجلان المذكوران هما صاحبان آتى الله أحدهما جنتين (بستانين) مثمرين فاغترَّ بما عنده ، وكان صاحبه أقلَّ منه مالاً ولكنَّه كان أكثر إيماناً وشكراً .

ويُسهب القرآن الكريم في وصف الجنتين ، قال تعالى :

- (واضربْ لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعنابٍ وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً * كلتا الجنتين آتت أُكُلَها ولم تظلم منه شيئاً وفجَّرنا خلالهما نَهَرا * وكان له ثمرٌ فقال لصاحبه ...)(الكهف :32 -33 – 34) .

ولعل الإسهاب في وصف الجنتين وتفصيل مافيهما بيان لعظم النعم التي أغدقها الباري عزَّ وجلَّ على أحدهما فآثر الحياة الدنيا وساقه غروره إلى الكفر .

وقد استُهلَّت القصة بالفعل (واضربْ) الطلبي الموجه إلى نبينا الكريم صلى الله عليه وآله ،ليتمثَّل بهذه القصة في خطابه المشركين وهو يدعوهم للإسلام ، تذكيراً لهم بنعم الله وفضله ، وحثّهم على التوحيد ونبذ الشرك .

ونلاحظ أنَّ القصة تضمَّنت ثنائيات :

- للقصة بطلان اثنان.
- لأحدهما جنتان اثنتان .
- ونتج عنهما موقفان اثنان : الكفر والإيمان .

ويهيمن الحوار على القصة بين الرجلين ، كما في قوله تعالى على لسان أحدهما :

(فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالاً وأعز نفرا)(الكهف : 34) .

وقوله تعالى على لسان صاحبه:

- (قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرتَ بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سوّاك رجلا)(الكهف :37) .

والملاحظ أنَّ ثمَّة فعلين هنا :

- أولهما ماض – قال .
- والآخر مضارع – يحاوره ، وهو من أفعال المشاركة ، وورد ضمن جملة حالية (وهو يحاوره) ، فالحوار يستلزم طرفين يشتركان في حديث متواصل ، وخير من يؤدي هذه الوظيفة هو الفعل المضارع بمرونته وقدرته على الاستمرار والدلالة على الحال والاستقبال ، وقد جاء هاهنا مسبوقاً بواو الحال ، وتتحرك الأفعال المضارعة في الآيات اللاحقة منصرفة نحو الدلالة على الاستقبال ، كما في قوله تعالى

- (ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظنُّ أن تبيدَ هذه أبدا * وما أظنُّ الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدنَّ خيراً منها منقلبا)(الكهف : 35-36) .

وجاءت الجملة الحالية هذه المرة جملة اسمية (وهو ظالم لنفسه).

والأفعال (أظنُّ – تبيد – لَأجِدَنَّ) تدلّ على الاستقبال ومثلها الفعل الماضي المسبوق بالشرط (لئنْ رُدِدْتُ) .

ويمثِّل الاستدراك بـ (لكنْ) حدّاً فاصلاً بين موقفَي الرجلين وهما يتحاوران ويمثّلان الإيمان والكفر،فقال تعالى على لسان المؤمن منهما :

- (لكنّا هو اللهُ ربي ولا أشرك بربي أحدا)(الكهف :38) .

وجاء الاستدراك هنا بصيغة مركّبة قوية ، في جملة تعدّد المبتدأ والخبر فيها :

لكنْ+ أنا +هو +الله + ربّي

لكنْ - مخفّفة مهملة تفيد الاستدراك.

أنا – ضمير منفصل مبني في محل رفع مبتدأ ، وقد حذفت همزته وأُدغِمت نونه مع نون حرف الاستدراك (لكنْ) ،

هو – ضمير منفصل مبني في محل رفع مبتدأ ثان.
اللهُ – لفظ الجلالة مرفوع وهو مبتدأ ثالث .
ربّي – خبر للمبتدأ الثالث ، وهو مضاف ، والياء ضمير متصل مبني في محل جر بالإضافة .
وجملة (الله ربي) في محل رفع خبر للمبتدأ الثاني (هو) ، وجملة (هو الله ربي) في محل رفع خبرللمبتدأ الأول (أنا) .(13)
وفي مجيء هذه الجملة بهذا التركيب القوي ، يشير إلى قوة موقف الرجل المؤمن وثباته على عقيدته رغم فقره ، ثمَّ يوحي هذا التركيب بتعظيم الله جلَّ جلاله والتأكيد على البراءة من الشرك .
وثمَّةَ في النص أفعال مضارعة أخرى تخصَّصت دلالتها بزمن الاستقبال ، كما في قوله تعالى :
على لسان الرجل المؤمن:

- (فعسى ربّي أنْ يؤتيَني خيراً من جنَّتك ويرسلَ عليها حُسباناً من السماء فتُصبحَ صعيداً زلقا * أو يصبحَ ماؤها غوراً فلن تستطيعَ له طلباً)(الكهف : 40 – 41) .

فالأفعال (يؤتيني –يرسل – فتصبحَ – يصبح –تستطيع) أفعال مضارعة انصرف زمنها إلى الاستقبال ، ومن جانب آخر نجد أفعالاً مضارعة انصرف زمنها إلى الماضي بدلاً من الدلالة على الحال والاستقبال ، كما في قوله تعالى في وصف ما آل إليه حال الرجل الكافر بعد اغتراره بماله وجاهه وإنكاره يوم القيامة :

- (وأُحيطَ بثمره فأصبح يقلِّبُ كفَّيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها ويقول ياليتني لم أشركْ بربّي أحدا * ولم تكنْ له فئةٌ ينصرونه من دون الله وماكان منتصراً)(الكهف :42 – 43).

فالفعلان (لم تكن –لم أشرك) تحوَّل زمنهما من الدلالة على الحال والاستقبال إلى الدلالة على المضي ، مع هذا نجد فعلاً ماضياً تحوَّل زمنه من المضي إلى الاستقبال هو الفعل (فأصبح) الذي جاء نتيجة الإحاطة بثمره وفي عقب الفعل (وأحيط) .
والملاحظ هنا أنَّ زمن الاستقبال هو الزمن المهيمن في هذه القصة وهذا ما يشكّل ملمحاً أسلوبيّاً فرض سيادته في الآيات المباركة ، لأنَّ هذه القصة صالحة للاعتبار في مختلف الأزمنة ولاسيَّما الزمن المستقبل التالي لزمن حدوثها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها لأنَّ سنة الله في خلقه أن يكون هناك مؤمن وكافر وهذه ثنائية خالدة يتكرر وجودها .

*** ***

ثالثاً – قصة سيدنا موسى – عليه السلام – والعبد الصالح .
وقد شغلت هذه القصة الآيات 60 - 82
وفيها هيمن الزمن الماضي بشكل ملحوظ في الآيات الكريمة ، وفرضت التثنية نفسها على النص القرآني بصورة واحدة تتمثَّل بارتباط الفعل بألف الاثنين ولكن بدلالتين مختلفتين :
الأولى تتمثَّل في الدلالة على ثنائية سيدنا موسى عليه السلام وفتاه .
والأخرى تتضح في ثنائية سيدنا موسى عليه السلام والعبد الصالح .

وتمثَّلت الدلالة الأولى بالآيات 60 – 65 وبرزت فيها الأفعال (بلغا – جاوزا – فارتدّا – فوجدا) ، وهي أفعال ماضية
خالصة ، وقد ابتدأت القصة بقوله تعالى :

- (وإذْ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو امضي حُقُبا)(الكهف : 60) .

و (إذْ) ظرف مختص بالماضي ، ولكن هذه الآية اشتملت على ثلاثة أفعال مضارعة (لا أبرح – حتى أبلغ – أو أمضي) ، وهي أفعال على لسان سيدنا موسى عليه السلام تدل على الاستقبال وصوَّرت حالة الإصرار على تحقيق هدف محدد وفق خطة موضوعة سلفاً بوحي
من رب العالمين .وثمَّة أفعال أخرى لم تتصل بها ألف الاثنين بل ضمائر رفع أخرى ، نحو (آتِنا – لَقِينا) على لسان سيدنا موسى عليه السلام وبعود الضمير (نا) إليه وإلى فتاه وهو معه في رحلته .أمّا الفعل (أوينا) فهو على لسان فتاه المرافق ، ويعود الضمير فيه إليه وإلى سيدنا موسى عليه السلام . ويعود الاختلاف في عود الضمير إلى اختلاف المتكلم في القصة .
أمّا ضمير الرفع
(نا) في (آتيناه – علَّمناه) فيعود إلى الذات العليَّة المقدَّسة .
.أمّا ضمير النصب (الهاء) في هذين الفعلين فيعود على العبد الصالح الذي سيدخل في المشهد دخولاً مباشراً منذ الآيات القادمة من الآية 66 حتى نهاية القصة ، ويبدأ الحوار المباشر لتُستأنف الأحداث من دون تريّث أو وصف تمهيدي كأنَّ القرآن يميل إلى اختصار الزمن والشروع بسرد ما هو أهم ، كما في قوله تعالى على لسان سيدنا موسى عليه السلام مخاطباً العبد الصالح وعارضاً عليه التتلمذ على يديه :

- (قال له موسى هل أتَّبعكَ على أنْ تعلِّمني ممّا عُلِّمْتَ رُشدا) (الكهف: 66) .

وتشتمل الآية الكريمة على فعلين مضارعين (أتَّبعكَ – تعلّمني) يدلّ زمنهما على الاستقبال ، وعلى فعل ماض مبني للمجهول (عُلِّمْتَ) .
عُلِّمْتَ – أنت – في المضي
تُعَلِّمَني –أنا – في المستقبل القريب
فالاستفهام وإنْ كان في الحال إلّا أنَّه يستدعي جواباً في المستقبل .
فأتاه الجواب إذْ ردَّ عليه العبد الصالح :

- (قال إنَّك لن تستطيع معيَ صبرا * وكيف تصبر على ما لم تحط به خُبرا)(الكهف : 67-68) .

وفي هذا النص زمنان يتعاكسان :
1 - المستقبل – في الفعل المضارع المسبوق بنفي أو استفهام - (لن تستطيع – وكيف تصبر) .
2 - الماضي – بالفعل المضارع المسبوق بـ (لم) للنفي والجزم والقلب – (لم تُحِطْ) .
ويظل زمن الاستقبال مهيمناً على هذا الحوار ، كما في قوله تعالى :

- (قال ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمرا * قال فإن اتَّبعتني فلا تسألني عن شيءٍ حتى أُحدِثَ لك منه ذكرا)(الكهف :69 – 70) .

ويتواصل زمن الاستثبال واصفاً إصرار الطالب وطاعته لمعلمه بعد أن كابد عناء الطريق وتعب السفر (ستجدني – ولا أعصي) ، ومؤكِّداً شروط المعلّم (فإن اتَّبعتني – فلا تسألني – حتى أُحدِثَ) .أوليست هذه شروط التعلّم في كل زمان ومكان ؟! وها قد صاغها القرآن ونظمها في هذا الحوار الهادىء بين كليم الله النبي المرسل عليه السلام وبين العبد الصالح . وبعد الاتفاق على هذه الشروط بين المعلّم وطالب العلم ، انطلقا في طريق العلم ليشهد موسى عليه السلام دروساً عمليّة تطبيقيّة على أرض الواقع مدعومة بوسائل إيضاح تعليمية مشاهدة بالعين المجردة ولكن تفسيراتها في علم غيب الله .وليس ثمَّة فعل أكثر مناسبة من فعل الانطلاق للسعي في سبيل تحصيل العلم ، لذا اختاره القرآن لفظاً يفتتح به الدروس الثلاثة التي تضمَّنتها رحلة التعلم ، قال تعالى :

- (فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها قال أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمرا) (الكهف : 71) .
- (فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً فقتله ...) (الكهف :74) .
- (فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها...)(الكهف :77)

فالانطلاق هو الخطوة الحيوية الأولى والفعالة في سبيل العلم نحو مستقبل يبدأه ويهيمن عليه فعل وأداتان :

فانطلقا – الفعل الماضي المسبوق بالفاء الاستئنافية .

حتى - الابتدائية .

إذا – وهي ظرف لما يستقبل من الزمان تتضمَّن معنى الشرط .

فالأفعال الماضية (انطلقا – ركبا – خرقها – لقيا – قتله – سألتك – أتيا – استطعما – شئت – لاتَّخذت) ، وهذه الأفعال الماضية التي تحوَّل زمنها إلى المستقبل دعمتها وعضدتها أفعال مضارعة هي الأخرى انصرف زمنها إلى الاستقبال (لتغرق – لن تستطيع – لا تؤاخذني – لاترهقني – لن تستطيع – فلا تصاحبني – أن يضيفوهما – سأنبئك – أن يرهقهما - أن يبلغا – ويستخرجا) ، وهذا الاحتشاد من الأفعال الماضية والمضارعة المتجهة نحو المستقبل والمتحولة عن أزمنتها تدفع بزمن الاعتبار بهذه القصص إلى الأمام لكونها صالحة ليس لزمانها الأصلي فحسب بل للآتي من الأزمنة إلى ما شاء الله .

وقد احتوى النص القرآني لهذه القصة على مجموعة تكرارات شكَّلت البناء اللغوي لسير الأحداث تمثَّلت في :

- تكرار ألف الاثنين في معظم الأفعال
- تكرارالفعل (فانطلقا) .
- تكرار (حتى إذا) .
- تكرار شبه الجملة (معي)
- تكرار ألفاظ الصبر (تصبر – صابراً – صبراً) .
- تكرار (ألم اقلْ) .

- تكرار (أمّا) التفصيلية .
- تكرار (إنَّك لن تسطيع معي صبراً).
- تكرار (ما لم تستطعْ عليه صبراً).

ويختم العبد الصالح كلامه موجّهاً الحديث إلى سيدنا موسى عليه السلام بقوله :

- (وما فعلته عن أمري ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً) (الكهف : 82) .

إنَّ هذا البناء اللغوي المعجز مثَّل الإطار الخارجي للقصة الذي يكتنز البنية العميقة الحافلة بالمواعظ والعبر التي يمكن اكتشافها من خلال الغوص في تراكيب الألفاظ وبنياتها الصوتية ، ونلحظ ذلك بوضوح في الفعل المضارع السداسي (تستطيع) الذي يبقى على وضعه نفسه في حالتي الرفع والنصب :

تستطيعُ ------- لن تستطيعَ

أمّا في حالة الجزم فيصيبه التغيير في شكل حروفه :

تستطيع --------لم تستطعْ

فقد حُذف خامسه الساكن (الياء) لالتقاء الساكنين ، ثُمَّ ظهر بصورة أخرى :

تستطيع – لم تستطعْ – لم تسطِعْ

فقد تمَّ حذف التاء للتخفيف لقرب مخرجه من مخرج الطاء بحسب رأي الزمخشري (14) .

*** ***

رابعاً – قصة ذي القرنين

تبدأ قصة ذي القرنين بالسؤال بصيغة المضارع الدال على الحال (يسئلونك) يامحمد عليه صلوات الله وسلامه ، وبأتيه التوجيه الإلهي (قل) وحياً بالجواب عن سؤال اليهود أو قريش عن ذي القرنين بأنَّه عبد صالح آتاه الله الملك والقوة ومكَّنه من الانتقال إلى مشارق الأرض ومغاربها لنصرة المظلوم ونشرالعدل ، وتطلَّبت هذه الحركة الواسعة في المكان والزمان ، حركة مصاحبة تتمثَّل بدبنامية الفعل وقدرته على مرافقة الأحداث عبر الأمكنة والأزمنة ، وقد سجَّل القرآن تلك الحركة في قوله تعالى :

- (يسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا * إنّا مكَّنّا له في الأرض وآتيناه من كلِّ شيءٍ سببا* فَأَتْبَعَ سببا)(الكهف : 83-84-85) .

ويتكرَّر (أتبعَ سبباً) ثلاث مرّات ويسبقه حرف العطف (ثُمَّ) الذ ي يفيد الترتيب والتراخي (15) ، وهذا المعنى يتناسب مع تنقلات ذي القرنين بين الشرق والغرب ، ويرافق هذا التعبير تكرار (حتى إذا بلغ) ، بمناسبة تامة لحركة التنقل والوصول إلى مغرب الشمس ومطلعها ، كما في قوله تعالى :

- (حتى إذا بلغ مغرب الشمس...)(الكهف : 86)
- (حتى إذا بلغ مطلع الشمس ...)(الكهف : 90) .
- (حتى إذا بلغ بين السدّين ...)(الكهف : 93) .

وثمَّ انتقال من مرحلة إلى أخرى تكرر فيه (حتى إذا) في قوله تعالى

- (آتوني زبرالحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله ناراً قال آتوني أُفرغْ عليه قِطْرا)(الكهف : 96) .

ولكون (حتى) تفيد الغاية تمَّ توظيفها في هذه الآيات لإفادة تحقيق الهدف مكررة مع ظرف المستقبل (إذا) الشرطية ، والفعل الماضي هنا تحوَّ ل من دلالته على المضي إلى الدلالة على الاستقبال ، ومثله الفعل المضارع المسبوق بسوف الدال على الاستقبال والتراخي في مجيء الحدث ، نحو قوله تعالى :

- (قال أمّا من ظلم فسوف نعذِّبه ثُمَّ يُرَدُّ إلى ربِّه فيعذِّبه عذاباً نُكرا * وأمّا من آمن وعمل صالحاً فله جزاءً الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا)(الكهف : 87 – 88).

فقد تعاضد حرفا الاستقبال (السين وسوف) في الفعلين (نعذّبه – نقول) وساندهما حرفا العطف (ثُمَّ – الفاء) في إفادة معنى التعاقب وتحويل زمن الفعل إلى زمن المستقبل .

ومثلما ورد التخفيف في الفعل المشارع السداسي (تستطيع) الوارد في قصة سيدنا موسى عليه السلام والعبد الصالح ، ورد كذلك في الفعل الماضي السداسي (استطاع) هنا في قصة ذي القرنين في قوله تعالى :

- (فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً)(الكهف : 97) .

في وصف مناعة السد الذي بناه ذو القرنين بما مكَّنه الله . فقد حذفت التاء للتخفيف :

استطاعوا -------- اسطاعوا

ويرى الأخفض الأوسط (ت 215 هـ) في معاني القرآن : (وقال "فما اسطاعوا " لأنَّ لغة للعرب تقول " اسطاع " " يسطيع" يريدون به "استطاع " " يستطيع " ولكن حذفوا التاء إذا جامعت الطاء لأنَّ مخرجهما واحد وقال بعضهم "استاع" فحذف الطاء لذلك وقال بعضهم " أسطاع" " يُسطيعُ" فجعلها من القطع كأنَّها "أطاعَ" " يُطيعُ" فجعل السين عوضاً إسكان الياء .)(16) .

وعلَّق صاحب محاسن التأويل المتوفى في (1332 هـ) على هذه الآية والآية التي وردت في قصة سيدنا موسى والعبد الصالح ، فقال : (أبدى بعضهم سرّاً للتعبير أولاً (بتستطع)ثمَّ أخيراً (بتسطع) بحذف التاء قال : لمّا أن فسر الخضر لموسى وبيَّن له تأويل ما لم يصبر معه ، ووضحه وأزال المشكل ، قال (تسطع) بحذف التاء . وقبل ذلك كان الإشكال قوياً ثقيلاً . فقال : سأنبِّئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً فقابل الأثقل بالأثقل والأخف بالأخف . كما قال : فما اسطاعوا أن يظهروه ، وهو الصعود إلى أعلاه ، وما استطاعوا له نقباً وهو أشق من ذلك فقابل كلّاً بما يناسبه لفظاً ومعنى .)(17).

****

وفي الختام فقد تتبَّعنا في هذا البحث حركة الأفعال وتحوّلات أزمنتها في قصص سورة الكهف ، ورأينا أثر تلك التحولات في المعنى وبيان دلالات الألفاظ وحركتها مع أحداث تلك القصص ،

ورصدنا من خلال ذلك هيمنة بعض الألفاظ على سياق الأحداث وسيادتها الواضحة ممّا أدّى إلى إلقائها ظلالها على المعاني ، ولاحظنا كيف هيمن زمن الاستقبال على القصص في إشارة واضحة غلى اتساع زمن التدبّر والاعتبار بتلك القصص ومقاصدها الوعظية والبيانية لتصبح بذلك صالحة لكل الأزمان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

هذا ما مكَّنني ربي والحمد لله رب العالمين .

هوامش البحث

.....

1 – د. إبراهيم السامرائي : الفعل زمانه وأبنيته 23 .
2 – ينظر: م . ن : 28 .
3 – ينظر ، ابن منظور : لسان العرب ، مادة (لبث) .
4 – ينظر ، م . ن ، مادة (مكث) .
5 – ينظر ، القرطبي : الجامع لأحكام القرآن 10 /336 .
6 – ينظر ، د . فاضل السامرائي : معاني النحو 2/ 177 .
7 – ينظر ، م . ن 2 / 178 .
8 – ينظر ، الزمخشري : الكشاف 2/ 661 – 662 .
9 – ينظر ، معاني النحو 4 / 21
10 – ينظر ، م . ن 3 / 281.
11 – ينظر ، م . ن 3 / 282 .
12 – ينظر ، م . ن 3 / 282 .
13 - ينظر، الكشاف 275/2.
14 – ينظر ، م.ن 298/2 .
15 – ينظر ، معاني النحو 206/3 .
16 – ينظر ، الأخفش : معاني القرآن 2 / 433 – 434 .
17 – ينظر ، محمد جمال الدين القاسمي : محاسن التأويل 56/7.

مصادر البحث

.....

القرآن الكريم
1 – إبراهيم السامرائي : الفعل زمانه وأبنيته ، مطبعة العاني ، بغداد ، 1386 هـ - 1966م .
2 – ابن منظور ، لسان العرب ، دار صادر ، بيروت ، لبنان .
3 – أبو الحسن المجاشعي بالولاء البلخي ثم البصري المعروف بالأخفش الأوسط : معاني القرآن ، تحقيق : د. هدى محمود قراعة ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط 1 ، 1411 هـ - 1990 م .
4 – أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت 671 هـ) : الجامع لأحكام القرآن ، قدم له : خليل محيي الدين الميس ، ضبط ومراجعة : صدقي جميل العطار ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع
5 - أبو القاسم محمزد بن عمر الزمخشري الخوارزمي (ت538 هـ) : تفسير الكشاف ، دار ابن حزم
6 – فاضل صالح السامرائي : معاني النحو ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، ط 1 ، 2007 .
7 – محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (ت 1332 هـ) : محاسن التأويل ، تحقيق : محمد باسل عيون السود ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط 1 ، 1418 هـ .

Tense Shifts In The Narratives Of Surat Al-Kahf: A Stylistic Study

Prof. Dr. Kamal Abdulrazzaq Saleh
Al-Mustansiriya University – College of Basic Education – Department of Arabic Language
dr.kamall.iq@uomustansiriyah.edu.iq

Abstract

This study examines the movement of time through the medium of the verb within the Quranic text, specifically focusing on the narratives mentioned in Surat Al-Kahf. These consist of four primary stories: the People of the Cave, the owners of the two gardens, Moses and the Righteous Servant (Al-Khidr), and Dhul-Qarnayn.

Time fluctuates through verbal shifts and varied semantic connotations—spanning the past, present, and future—based on the definition of the verb as an event intrinsically linked to time. This research seeks to extrapolate the dynamic movement of time across these four narratives through stylistic analysis. It aims to elucidate the nature of temporal shifts and compare their manifestations in each story relative to the others.

The study emphasizes that these "verbo-temporal" transitions are meticulously aligned with the Quranic narrative structure, as their placement within each story is essential to constructing the intended meaning and achieving the specific rhetorical objectives of each account.

Keywords: Time, Verb, Surat Al-Kahf, Stylistics.